
5
قصص الصحابة
الأم والفارس الشهيد
سلوى العناني
دار اللطائف
للنشر والتوزيع

الأم والفارس الشهيد

(أسماء بنت أبي بكر)

[إن لكِ بنطاقكِ هذا نطاقين في الجنة]

صدق رسول الله ﷺ

هذا مشهدٌ لن ينساه التاريخُ ، لأنه مشهدٌ يرتفعُ بالمشاعرِ الإنسانيةِ إلى مستوًى يصعبُ تصديقُه .. فهو مشهدٌ للولاءِ للفكرةِ، وللعقيدةِ ، ومشهدٌ للتضحيةِ ، والشجاعةِ ، وقدرةِ الإنسانِ اللانهائيةِ على العطاءِ ..

المكانُ : بيتٌ بسيطٌ من بيوتِ مكةَ .

الزمانُ : الثلاثاءُ .. السابعَ عَشَرَ من جُمَادَى الأولى سنة 73 هـ .

أبطالُ المشهدِ : رجلٌ جاوزَ السبعين . وأمُّه التي شارفَتْ على المئةِ ..

الابنُ يرتدي ثيابَ الحربِ ، ويستعدُّ للخروجِ إلى معركةٍ يعلم مسبقًا أنه لن يعودَ منها ، فقد تفرقَ عنه الصِّحابُ ،

والولدُ، والأهلُ .. أما الأمُّ فقد كُفَّ بصرُها ، وظهرتْ عليها علاماتُ السنين إلا أن نورًا خفيًّا كان ينيرُ وجهَهَا ، ويضيءُ كلماتها ..

دخلَ الابنُ على أمه يقبل يَدَها ، ويسألها المشورةَ .. فماذا هو فاعلٌ ؟.. هل يواصلُ حربَه؟ .. وكفةُ الخصمِ راجحةٌ لا محالةَ.. فهم ألوفٌ مؤلفةٌ ، بينما لم يتبقَ حوله إلا نفرٌ قليلٌ .. أم يُسَلِّمُ لهؤلاءِ الخصوم ، وقد عرضوا عليه أمنَه ، وسعادتَه مقابلَ تخليه عن قضيته ؟

فماذا تقولُ الأمُّ في هذه اللحظةِ .. وهذا ولدها مقبلٌ على موت محقق ؟!

قالتْ الأمُّ : (واللهِ يا بنيَّ أنتَ أعلمُ بنفسِك .. إنْ كنتَ تعلمُ أنَّك على حقٍّ فامضِ له .. فقد قُتِل عليه أصحابُك ، وإنْ كنتَ إنما أردتَ الدُّنيا فبئسَ العبدُ أنتَ .. أهلكتَ نفسَك ، ومن قُتِلَ مَعك ، وإنْ قلتَ إني على حقٍّ ، فَلَمَّا وَهَنَ أصحابي ضَعفْتُ .. فهذا ليسَ فِعْلَ الأحرارِ ، ولا أهلَ الدين..) ، وانحنى الفارسُ وقَبَّلَ رأسَ أمه ، وأمسكَ

كَفَّها بين كَفَّيْهِ ، وقال : (هذا رأيي لكـني أحببتُ أن أعلم رأيك ، فزدْتِني بصيرةً .. فانظري يا أماه إني مقتولٌ من يومي هذا .. فلا يشتدُّ حزنُك لأمرِ الله .. فإن ابنك لم يتعمدْ إتيان منكرٍ ، ولا عملَ بفاحشةٍ ، ولم يَجُـرْ في حكمٍ ، ولم يتعمدْ ظلمَ مسلمٍ ، ولا معاهدٍ) .

ثم اختنـقَ صـوتُ الفـارسِ ، ورفـع رأسَـه إلى السـماءِ ، وقال : "اللهمَّ إني لا أقـولُ هـذا تزكيـةً لنفسـي ، ولكـن تعزية لأمي ، لتسلو عني" .

حَبَسَتْ الأمُّ دموعَها ، وصَمَتَتْ قليلا ثـم قـالت : (إنـي لأرجو أن يكونَ عزائي فيك حَسَنًا ، فاخرجْ حتـى أنظـر إلى ما يصيرُ إليه أمرُك) .

عاد الفارسُ ، فَقَبَّلَ يدي أمِّه ، ورأسَها ، ثم عانقها .

أما الأمُّ فقد رفعتْ كفَّيها ، ضارعةً وهي تـردد : "اللهـم ارحمْ طولَ قيامِه في الليلِ وظمأَه في المهاجرِ ، وبِـرَّه بأبيـه ، وبي .

اللهم قد أسـلمته لأمرِك فيـه .. ورضيـتُ بمـا قَضَيْـتَ ،

فأثبني في ولدِي عبدِ الله، ثوابَ الشاكرين الصابرين"

التفت الفارسُ إلى أمه وقال:

(إني أخافُ أن يُمَثَّلَ بي بعدَ موتي).

فرفعت الأم رأسَها في شموخٍ وقالتْ:

(إن الشاةَ لا يضرُّها سَلْخُها بعدَ ذَبْحِها).

ربما ظن القارئُ أن هـذا مَشْـهَدٌ مسرحيٌّ مؤثـرٌ .. لكنه ليسَ كذلك .. إنما هو مشهدٌ حقيقيٌّ سجله التاريخُ لبطلين عظيمين.

الأمُّ هي أسماءُ بنتُ أبي بكرِ بـنِ أبي قحافةَ رضي الله عنهما.

أما الابنُ فهو عبدُ الله بنُ الزُّبير بن العوام.

كانت (أسماءُ) قد أسلمتْ مـع بـاقي أفـرادِ أسرتها بعـد إسلامِ أبيها أبي بكرٍ الصديق ـ أول من أسلمَ من الرجـالِ ـ وكانت أسماءُ في هـذا الوقـتِ صَبِيَّةً في حوالي السابعة عشرة من عمرهـا وبعـد سنواتٍ مـن إسلامها تزوجتْ الصحابيَّ الجليلَ الزبيرَ بنَ العوامِ ابنَ السيدةِ صفيةَ عمةِ

النبي الكريم ، وابن شقيقِ السيدةِ خديجةَ زوجِ النبيِّ عليه السلامُ ، وأحدُ السبعةِ الأوائلِ الذين دخلوا في دينِ الله قبل أن يبلغَ الخامسةَ عشرةَ من عمره .. وهو الذي قال عنه رسول الله: "إن لكلِ نبيٍّ حواريًا ، وحواريّ الزبيرُ بنُ العوامِ" .

وعاشتْ السيدةُ (أسماءُ) مع زوجها (الزبير) في مكةَ شهورًا قليلةً حتى أَذِنَ الرسولُ لأصحابه بالهجرة إلى المدينةِ في مجموعاتٍ صغيرةٍ .. وفي إحدى هذه المجموعاتِ غادرَ (الزبيرُ بنُ العوامِ) مكةَ إلى المدينةِ مهاجرًا في سبيلِ الله ، وترك زوجتَه (أسماءَ) في شهورِ حملِها الأخيرةِ . وأَذِنَ الله للرسولِ بالهجرةِ ، فاتجه إلى بيتِ صديقه (أبي بكر) الذي كان جاهزًا للرحيلِ ، ينتظر إِذْنَ النبيِّ .. فأنبأه أن الساعةَ قد حانتْ ، وأنه يمكنهما الرحيلَ .

غادرَ (أبو بكر) بيته مهاجرًا مع النبيِّ ، وقد حملَ معه كلَّ ما كانَ له من مال (خمسة آلافِ درهم) ، وترك وراءه زوجتَه وابنتيه عائشةَ وأسماءَ ، وولدَه عبدَ الله بنَ أبي بكرٍ .

اتجه النبيُّ ، وصاحبه الكريمُ إلى (غارِ ثـورٍ) حيثُ قَضَيَا ثلاثَ ليالٍ ، يزورهما كل مساءٍ (عبدُ الله بـنُ أبـي بكـرٍ) حاملا معه أخبارَ قريش ، وبعضَ الطعام ، ويتبعـه مولاهـم (عامرُ بنُ فهيرةَ) الذي كان يرعى إبلَ أبي بكـر ، فيحلـبُ الشياهَ ، ويسقي النبيَّ وصاحبَه لبنَها ، ثـم يتبعُ عبدَ الله في طريقِ العودةِ ، فتخفى الأغنامُ آثارَ الأقدامِ البشريةِ ، إمعانًا في التمويهِ ..

وفي الليلةِ الثالثـةِ قـامتْ (أسماءُ) – رغـم ثِقَـلِ حَمْلِـها فأعدتْ زادَ السفرِ للنبيِّ الكريم ، وصاحبه .. فكيـفَ تَضَـعُ الماءَ والطعامَ على ظهرِ الراحلة؟..

احتارتْ (أسماءُ) قليلا ثم فَكَّتْ نطاقَها ، وشقته فربطـتْ وسطها بنِصْفـهِ ، وعَلَّقَـتْ طعـامَ المهاجِرَيْنِ وشـرابَهُما في النصفِ الآخرِ ..

ولما رأى الرسولُ مـا صنعـتْ (أسماءُ) ابتسـمَ لذكائـها ، وعطائِها ، وبَشَّرَها قائلاً :

"إن لك بنطاقِك هذا نِطَاقَيْنِ في الجنةِ" .

ومن يومها سُمِّيَتْ (أسماءُ) بذاتِ النِطاقَيْنِ [1].

ويأتي (أبو قحافةَ) والدُ (أبي بكرٍ) - وكان لم يدخلْ الإسلام بعدُ - ليزورَ أحفادَه بعد أنْ عَلِمَ بهجرة ابنه مع الرسولِ إلى المدينةِ. وسألهم عما تركه لهم أبوهم من مالٍ ..

وتسرعُ أسماءُ، فتجمعُ بعضَ الحَصَى، وتضعُه حيثُ كان أبوها يحفظُ مالَه، وتغطيه ببعضِ الثيابِ ثم تأتي بجدِّها - وكان كَفِيفًا - فتضعُ يدَه فوقَ الحَصَى، فَيَحْسَبُه الشيخُ مالا ..

لقد عَزَّ على أسماءَ أن يَشْمَتَ جدُّها فيهم وهو الذي قال: (والله إني لأراكم قد فُجِعتم بماله مع نفسه ..).

وكان ذكاءُ أسماءَ، وسرعةُ بديهتها أقوى من شماتةِ هذا الجَدِّ .. فأقنعته بأن والدَهم قد تركَ لهم خيرًا كثيرًا .. وهذا حقٌّ .. فقد ترك لهم رِضَا الله ورسوله ..

وأيَّد الله نبيه، وصاحِبَه، وأعانهما على سَفَرِهما وَوَصَلا سالمين إلى المدينة ..

(1) النطاق: حزام تربطه المرأة على وسطها تسند به ظهرها وترفع به أطراف ثوبها.

ولما استقرَّ بهما المقامُ أرسل أبو بكر إلى ولده أن يأتي ، ومعه أختاه (أسماءُ) ، و(عائشةُ) وزوجةُ أبيه (أم رومان) وتتحمل أسماءُ مشقةَ الرحيلِ وقد أوشَكَتْ أن تتم أيامَ حملها .. يا لها من رحلةٍ شاقةٍ يعلمُ الله وحده كَمْ عانَتْ (أسماءُ) أثناءها .

وفي (قباء) على مشارفِ المدينةِ المنورةِ نزلتْ (أسماءُ) حيث جاءها المخاضُ .. ورزقها الله بصبيٍّ جميلٍ ، وكم كانت فرحةُ المسلمين في المدينةِ بهذا الوليدِ فأمُّه هي (أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ) ، وأبوه (الزبيرُ بنُ العوامِ) أحدُ السبعةِ الأوائلِ الذين سارعوا إلى الإسلام .

يا له من طفل كريم النَّسَبِ ..

وكانت ولادةُ هذا الطفلِ بالمدينةِ رَدًّا حاسما على اليهودِ الذين أشاعوا أنهم سَحَرُوا نساءَ المسلمين ، ليُصَبْنَ بالعقمِ ، فلا يُولَدُ لَهُنَّ طفلٌ بالمدينة ..

وحمل المسلمون الطفلَ إلى الرسولِ ، فباركَه ، وسماه (عبدَ الله).. عبدَ الله بنَ الزبيرِ بن العوامِ .. وبعدَ عبد الله رزقَتْ

أسماءُ بالبنين : عروةَ ، والمنذرِ ، وعاصمٍ ، والمهاجرِ ..
وبالبنات : عائشةَ ، وأم الحسنِ ، وخديجةَ ..

كان الزبيرُ زوجُ أسماء فقيرًا لا يملكُ من متاعِ الدنيا إلا فرسَه .. فكان على أسماءَ أن تقومَ بكلِّ واجباتِ الزوجةِ والأمِّ .. ترعى أبناءها وزوجها ، وتعلفُ الفرسَ ، وتسقيه ، وتعجنُ العجينَ ..

تروى (أسماء) عن نفسها .. "لم أكن أحسنَ الخبزَ .. فكانت تخبزُ لي جاراتٌ من الأنصار " .

يا لها من إنسانةٍ بسيطةٍ صريحةٍ .. لم تخجلْ من الاعتراف بأنها لم تكن تتقن (الخبز) .. ويا لها من صورةٍ رائعةٍ من صورِ التكافلِ ، والتعاون . فها هن نساءُ الأنصار من جاراتها يساعدنها على ما لم تكنْ تتقنه ..

ولما عَرِفَ الأبُ (أبو بكر) بما تعانيه ابنته أرسل لها خادمًا تساعدها ..

لكن حال الزبير لم يستمرَّ طويلا على هذا ، فقد شاركَ في الفتوحاتِ ، والغزواتِ ، ونالَ نصيبَه من الغنائمِ ، وفتَح

اللهُ عليه.. وأظنّ (أسماءَ) استراحت بعد هذا .. فهي لم تخلقْ لهذا التعبِ.. لكنها تحملتْ مسئوليتها كزوجةٍ ، وأمٍّ على أحسنِ وجهٍ .

ونقلب الأوراقَ ، ونقرأ عن (أسماءَ) صفحـاتٍ مشرقةً .. فقد كانتْ من أفقه صحابيـاتِ رسـولِ الله صلى الله عليه وسلم .. أخذت عن أبيها حُسنَ الخُلقِ ، وروائعَ السلوكِ ، وصحيحَ التقوى.. وهي نموذجٌ في الكرمِ ، والجودِ ، والذكاءِ ، والشجاعةِ..

ومن خلال شقيقتها (عائشةَ) أم المؤمنين تعلمت (أسماءُ) الكثيرَ عن فقهِ دينها .. وكانت تنقل ما تخجلُ أن تنطقَ بـه أمامَ الرسول إلى (عائشةَ) التي تأتيها بالإجابةِ .. وأضحتْ (أسماءُ) موسوعةً في السنةِ النبويةِ خاصةً في أمورِ (النساءِ) .. وكانت راويةً للحديثِ ، أخذَ عنها كثيرٌ من الـرواةِ ، أهـلِ الثقةِ .

وتمضي الأيامُ بالكريمةِ بنـتِ الكريـمِ (أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ) وتشهدُ وفاةَ النبيِّ ، ثم وفـاةَ أبـي بكـرٍ ، ومِـنْ بعـده

عمرَ، ثم عثمانَ، وعليٍّ، وتنتقلُ لتعيشَ مع ابنها البكر (عبدِ الله بنِ الزبيرِ بنِ العوامِ) الذي اختاره المسلمون خليفةً لهم بعد وفاةِ يزيدَ بنِ معاويةَ .. ونَقَلَ عبدُ الله مقرَّ الخلافةِ إلى مكةَ المكرمةِ بعد أن كانَ يزيدُ بنُ معاويةَ قد جَعَلَ هذه العاصمةَ في دمشقَ إبَّانَ خلافتِه، وتَنْشَقُّ عصا المسلمين.. فها هو (مروانُ بنُ الحكمِ) يعلنُ نفسَه خليفةً على الشامِ .. ويَخْلُفُهُ ابنُه (عبدُ الملكِ بنُ مروانَ) ويعلنون رفضَهم لخلافةِ (عبدِ الله بنِ الزبيرِ) .. وتتوالى الحروبُ.

وينقسم المسلمون .. ويتبع بعضُهم خليفةَ دمشقَ ويتبعُ الآخرون خليفةَ مكةَ، وتدورُ المعاركُ، وتتداخلُ المؤامراتُ لتكونَ ضدَّ الشجاعةِ .. وتتعددُ هزائمُ (عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ) حتى يأتيَ اليومُ الحاسمُ.

الثلاثاءُ .. السابعَ عَشَرَ مِنْ جُمَادَى الأولى سنة 73هـ.

هذا اليومُ الذي شَهِدَ مَصْرَعَ عبدِ الله بنِ الزبيرِ بعد معركةٍ قصيرةٍ ضدَّ (الحجاجِ بنِ يوسفَ الثقفي) الذي قَتَلَه، وعَلَّقَ جثته في العراءِ، ثم فَصَلَ رَأْسَه، وبَعَثَ بها

إلى مولاه (عبدِ الملكِ بنِ مروانَ) .

ويقف الحجاجُ (قاتِلُ عبدِ الله) أمامَ أسماءَ (أمِّ عبدِ الله) محاولاً استرضاءَها .. فماذا تقول هذه الأم العظيمة؟

قالت (أسماءُ) : "لقد أفسَدْتَ على ابني دُنياه وأفسَدَ هُوَ عليك آخرتَك .. ولا ضَرَّ أن أكرمَه الله على يديك (شهيدًا) فقد أُهْدِيَ رأسُ يحيي بنِ زكريا إلى بغيٍّ من بَغَايا بني إسرائيل" .

يا لروعة التشبيه .. لقد أُهْدِي رأسُ ابنها (الوَرِعُ التقيُّ الصالحُ) إلى (عبدِ الملكِ بنِ مروانَ) كما أُهْدِي رأسُ النبيِّ (يحيى بن زكريا) إلى عاهرةٍ ضائعةٍ من بني إسرائيل هي (سالومي) .

هكذا احتقرت (أسماءُ) هذا الطاغيةَ (الحجاجَ بنَ يوسفَ الثقفي) الذي أسال الدماءَ على الأرضِ الحرامِ في (مكةَ) ومَنَعَ المسلمين أن يؤدوا فريضةَ الحجِّ في هذا العامِ .

وصَبَرَتْ الأمُّ العظيمةُ على ابنها - ذلك المصلوب في العَرَاءِ بغيرِ رأسٍ - لما يقرب من شهرٍ .. ثم أنزلته ، وكفنته

وصَلَّتْ عليه ، ثم دفنته .

يا لها من أم عظيمة رائعة ..

كانت (أسماء) في هذه الفترة قد ناهَزَتْ المئة من عُمْرِها ..

وما هي إلا أيامٌ .. ولحقت (أسماءُ) بابنها .. كريمان يلتقيان عند خالقهما ، يكفي أن نذكر (لعبدِ الله بنِ الزبيرِ) موقفَه يومَ معركـةِ (إفريقيـة) .. عندمـا واجـه جيـشُ المسلمين – عشرون ألف مقاتل – جيش البربر – مائة ألف وعشـرين ألف مقاتل ..

والنـاظرُ لطرفي الصـراع يومـها لابـد أن يشـفقَ لحـالِ المسلمين لكن (عبدَ الله بن الزبيرِ) كـان ضمـن الجيـشِ .. واستطاع بذكائه أن يدرك سِرَّ قوةِ عدوِّه .. لقـد وجَدَهـا في قائدِهم – ملـكِ البـربرِ – الـذي كـانت صيحاتُـه تشـعلُ الحماسَ في قواتِه فيستميتون في قتالهم ..

ورغم الموقع الحصين الذي كان يقفُ فيه ملـكُ البـربرِ .. إلا أن شجاعةَ ابنِ الزبيرِ جعلته ينسى الهـولَ الـذي أمامَـه ويندفعُ كالسهمِ بعد أن قالَ لإخوانه من حوله :

(احموا ظهري واهجموا معي) ..

وكأنه قذيفةٌ انطلقتْ إلى هدفها .. شَقَّ الصفوفَ واتجه إلى رأسِ الملكِ فأطاحَ بها .. ثم الْتفتْ إلى الحـراسِ الذيـن كانوا حوله فصرعهم جميعا وانطلقت صيحته : الله أكبر ..

هذا هو (عبد الله بن الزبير) مقاتلا في سبيل إعلاء شأنِ الإسلام أما (ابنُ الزبيرِ) المؤمنُ التقيُّ .. فهو كما قال عنـه ابنُ عباس رضي الله عنه : (كـان قارئًـا لكتـابِ الله ، متبعًـا سنةَ رسولِه .. قانتًا لله .. صائمًا في الهواجـرِ مـن مخافـةِ الله .. ابن حواريّ رسول الله .. وأمه أسماءُ بنـتُ الصديـقِ وخالتُـه (عائشةُ) زوجةُ رسولِ الله .. فلا يجهلُ حقَّـه إلا مَـنْ أعمـاه الله) .

عليك رضوانُ الله يا عبـدَ الله وعلـى أمـك أسمـاءَ ، فقـد كتبتما في كتابِ التضحية والصمود والشجاعةِ ، والتقـى .. صفحاتٍ لن يطويها التاريخ أبدًا !!